



# الايام

مهداة الى م. محمود دياب

بقلم محمد الصباحي

- ١ -

اما بعد : فيا معشر الخلائق ، ان احسن الكلام ما اغناكم قليله عن كثيره . والمعلم علمان ، علم حمل ، وعلم احتمال ، والعاقل اذا لم يعلم شيئا كان كمن لا عقل له ... انا من انا في زماني ، انا سيدكم الخضر رضي الله عنه ، شربت من عين الحياة ، انا غير قابل للفناء ، و آخر انسان يموت على هذه الكرة ... هل احدثكم عن جيل يأتي بعدي يطعمكم اللحم الطازج ، يملأ الارض كفرا وايمانا . ويسافر ... حتى انا ساسافر ، ساقود التاريخ الضريف الى الهاوية ، انا للفم ، اضحك على التاريخ ، نضحك عليه ، سوف اعلمكم فن الضحك ، لتصبحوا انتم كذلك : حيوانات ضاحكة مثلي ... ام احدثكم عن بلاهة الآباء الحابلة بنجاة الابناء . واسافر . اركب الليل وجميع الاوقات . ام ادلكم على الاموات الهارين من قبورهم ، ام على القبور الماشية الى امواتها؟! هل انساكم ، واسافر ؟ يكنسني اصحاب الدكاكين كل صباح ... والاحمق هو من ينسى ما تبقى في حلقة من ثمالة الشتم والاهانة ... اما العاقل فيكنس كل شيء ، حتى الاجسام ، ياكل ، يشرب ، يتبرز ، ويعانق النساء والهموم التافهة ، تفرخ في كل رأس وزاوية ... انا سيدكم ، اخطب فيكم ، تخطبون في ، اتعري امامكم الا من لون عيوني ، تتعرون امامي الا من عقولكم .

هذا والسلام والى اللقاء ... اما انت ، حبيبتى ، فانا المتفرد بحبي لك ، وكلهم يتجشأونك ، يرونك ماخورا أو حانة ، أو امرأة لا تصلح الا للسريير ، السريير ، وأنا وحدي اراك عروسة جديدة بالطهر ، وحدي اعرف برءاتك . ولا ابفض احدا ، ولا اشيع على جسمك المهبر ولا الايام العجاف ... » .

انه يتحدث مع ملائكته ، فلا تثقوا بمن يهرف بما لا يعرف ، فنحن اسمى من تخيلات المجانين ، شيدنا الحضارة للانسان ، وبنينا المستشفيات والعنابر للمجانين ، نصنع التاريخ ، وننجب الابطال والموظفين ،

انظروا اليه ... ها هي الايام تلعب به ، تنقلب عليه ، تطوح به بعيدا عنا . كان المسكين اعقل الناس ، مؤدبا ، يحافظ على المواعيد ، امينا ، طائعا كالخروف ، والساذج هو من ياتمن الزمن ... كانت آخر رغباته ان يهاجر هذا الانسان ... وها هو يطوف الشوارع ، يبول في سرواله امام المأ ، يركض ، يقلد اصوات الطيور ومنبهات السيارات ، انه مجنون ، احمق ... فرجوا عن انفسكم المهمومة ، هذه مناسبة لا تعوض ، ابتسموا ، تبتم الدنيا لكم ، والجنون وحده يكبح جماح الغرياء .

« ... الآن اعود اليك يا حبيبتى ، لم اعد اهوى الاسفار ولا الاقامة ، الآن ابتلع نفسي ، امتطي صهوة فرحتي ، واعدود . هل اقول صرت عاقلا ، ام ندلا ؟ ... صعبان علي الجنون ايتها المجنونة ، صعبان علي الحق المكنون في عيون نساءك يا عاهرتي الفاضلة ، صعبان علي عقلك الخائف من ظله ، الباكي كالطفل عند اقدام السواح والمقامرين ، الضاحك من همه ... اما عقلي فيرتد الي ... الآن ادخل الى عقلي ، وابقى ... تملاني حتى قمة الرأس هموم الليل والنهار ... » .

في الصباح الباكر ، يتوكل اصحاب المتاجر ، يشرعون في الاستعداد للريح ، وكنز الاموال ، ينظفون عتبات دكاكينهم ، يكنسون الاجسام الادمية والحيوانية النائمة في العراء ، يكنسون جسم المجنون ويلحسون اول درهم يسقط في اكفهم الجشعة ... في مدينة بيضاء كالضباب ، كبيرة بلا عقل ، وقف مجنون على قدميه ، وخطب في قطن وكلاب المدينة :

« ... ايتها القطن الجائمة ، والمتخمة ، المتناسلة بلا هدف ، وايتها الكلاب الضالة المحرومة ، المحظوظة .. هل ادلكم على شجرة محار ، تمنح المال والجاه لكل من سقاها من ماء وجهه ، جرعة ماء ، هل اخترع لكم اللحم والخبز ، ام احدثكم عن نفسي ؟

نصدر الصبر للخارج ولا نستهلك الا ما لذ وطاب ...  
باختصار ، نحن في تقدم مستمر نحو كواكب السماء ،  
والجنون فنون ...

« ... انا الخضر عليه السلام ، اقرب اليكم منكم ،  
وبعيدا عنكم ، بعدكم عني ، ترونني ولا اراكم واراكم ولا  
ترونني ، انا اللغم الذي سوف يفجركم ، ضاعت نفسي ،  
رايتها فيكم ، صرت انسانا ، والناس في الشارع وفي  
المقهى ، الناس يحومون حولي ، الناس في السرير ، في  
الحمام ، في السجن ، وفي المستشفى والمحاكم ، الناس  
حاضرون حضوري بينكم ، وغائبون غيبيتي عنكم ، الناس  
في كل مكان ... في الامكان ... » .

وابتسم حتى ظهرت اضراس عقله . وكان الناس  
يلامسون الناس بالعيون وبالالسنه ، بالصدر والاعناق .  
ويقبلون الوجنت الوردية والصفراء ولا يستحون من  
السواح والملائكة ... عند ذلك نام الاحمق في امان على  
الرصيف حتى الصباح .

« ... الليلة آتيك يا سيدتي كما تشائين ، اما  
متهما ، واما معتموها بحب نبيل ، ملقى على قارعة الطريق .  
تطاني اقدام الانسان ، ولا احد يبوح بحبك غير المجانين .  
هل اقول صرنا مجانين ؟

وصارت هذي المدينة مستشفى بلا سجاج ولا  
دواء ... والريح ... تعريني الريح الفارسة ، تحضني  
برودة حبك ، ترجفني . العيون تذبطني ، فأرقص من  
الالم . هل اقول صرنا مجانين ؟ ام اسافر ؟ اسري بين  
الرجفة والذبح ، اشاهد جسمي الغريب بينكم ينكرني ،  
يضيع مني بين ثنايا الفصول ... نصفي العلوي لانسان  
من اواخر القرن العشرين ، والنصف السفلي لحصان  
عربي اصيل ، يجري مسعورا من المحيط للخليج ...

انا الخضر ... حاولت مرارا ان اماشيكم ، فلم  
تماشوني ، حاولت ان اكون مجنونا فعقلتموني ، ذكرتني  
ثنايا الوجوه والفصول ... حاولت الجنون ، فذكرتني  
آهات الاقبية المجهولة ، فخفت من ظلي ... » .

قالت له والدته : لا تخف يا ولدي ، تلك اصوات  
اطفال الجن ، تأتي من الاقبية السفلى ، ولا احد يسمعها  
الا المسكونون مثلك ...

ثم سقطت صريعة شيطان مراهق ... وكان الناس  
في هذه المدينة يكبرون بسرعة مدهشة ، كالأعشاب  
السامة ، يخافون من الموت ، ويضحكون من المجانين ،  
يتقولون كالكياس ، ويسقطون كأوراق الخريف على  
جوانب الطرقات ، صرعى ، بلا حرب يسقطون ... قال  
ساداتنا المثقفون العارفون بمجرى الامور : انهم مكبوتون  
معتقدون . وانفردوا بذواتهم معقدين مكبوتين . فسبحان  
من عقّد وكبت بلا سبب !

« ... قلت لك مرارا بيني وبينك بحر من الافواه  
والادمغة والانوف ، من النفوس الامارة بالجنون ،  
بالخوف المزوج ببقايا العصور وسحنات التاريخ .

قلت : يركض بيني وبينك نهر من القبح ، وانا لست  
بالقبيح ولا بالمجنون ... انا اللغم ، ابحث عن صليبي ،  
فانا لست الخضر ... انا انتم ، اراني مشوها ، ملطخا ،  
شريفا ، عاجرا ... واراكم تدعون حيازة النجوم وعشق  
القمر ، ولا ارى في نفسي ، شيئا يعشق ... في البدء  
كنت وحدي ... وجئتم فعلمتموني ان اتفنى بحب القمر ،  
ثم الهاكم التكاثر . وغنيت وحدي كالبيغاء ، تحسرت  
وحدي ، زينت بالقمر . وتدللت . تماما كالمراهق العاشق .  
لكني لما وجدت انهم كثيرون ، من يناقون القمر ويبيعون  
الارض لبعضهم ... لم ار في نفسي شيئا يعشق ... » .

انظروا اليه ، ها هو يمشي كالعاقل ، لا يركض ولا  
يبكي ، يتقدم في الشارع الانيق ، انيق النظرات ، حافي  
القدمين ، والرأس خال تماما ...

« ... وضعت اوزاري وذنوبي في قمامة الاوزار  
والذنوب . وصرت خفيفا كالقمر ... ورغم انكم ترون  
الابتسامة على وجهي ، فانا لا ابتسم ، ابدا لا ابتسم .  
اتضايق من العيون المشبوهة ، من الاقوال البذيئة ،  
تضرب مسممي ، تدنسني ، تضايقني نظرات النساء  
المتورمة ، المحملة بملايين السنين من الجهل والتفريخ .  
الآن صرت اتقدم بينكم ، تتجمعون حولي كالذباب ، انا  
اللغم ، انا القليل الادب ، البذيء ، اجهل علم التجييل  
وعلم الاصول ... في ذلك المساء ، حدثني المساء عنكم ،  
بات العالم كثيبا ، وبات الكل مربوطا في الكل ، من جذع  
الصفات السرية والعلنية ، انكمش على نفسي ، والعالم  
على نفسه ، خائف من ظله ...

قلتم ، اني خرجت على عقلي ، جننت من كثرة  
القراءة ، وضيعت صوابي . لم اعد احسن النفاق  
والشفاق ، ربما خانني حيائي ، فشتت السماء  
والارض ، الزواحف والدواجن ، وحقت عليّ الحاقة .  
انا الاحمق ولا احد اعقل مني ، ولا احد احقق مني  
- بدون افتخار - ومن لا يفخر ، فجزاؤه الجنون ونم  
المصير . حقن كثيرة تخدر الاعصاب واقراص متكاثرة  
تلين الاحساس ، ثم المبيت تحت الماء البارد ، عسى ان  
يغير الاحمق رايه ، ويماشينا . او يعثر على حواسه  
فيناقنا ... وضاع صوابي ، انا احبذ ان يضيع الصواب  
في مدينة لا صواب لها ... تبعثرت بين الصائب  
والخاطيء ... فلم انتفخ ولم افتخر ... » .

- ٢ -

فجأة اصبح الاحمق مهما في نظر القبيلة ، يحتل  
حيزا مهما من عقليتهم ، يمشي على الرمل ولا يترك اثرا ،  
على النار ولا يترك اثرا ، صار عبرة ، ودا ، ودواء يصلح  
للكثير من الامراض ، يعرف كل الاسرار والانساب ،  
والبطون ، يرافق الجن وينطق بالحكمة ... الصفار  
يتحرشون به في النهار ، ويرعبونهم به في الليل ،

امام القضاء والقدر . يشتم النوافذ الساهرة ، ويمشي ... هل فرّ من مستشفاه ؟ أم هذا معنوه آخر جنّ مند قليل ؟ لكن ثقافة المدينة أكدوا انهم - فعلا - رأوه باعينهم يمشي في عزّ الليل . بل أقسموا على طلاق زوجاتهم ان كانوا كاذبين . ثم تكاثرت حكايات الناس عن المجنون . مرة رأوه يجري فوق السطوح ... ومرة كان خلف المزبلة يقلب أزبالها ، ويرتدي كامل ثيابه ، يبحث عن انسان ما ، عن شرف ما ، عن صواب ضاع منه ... حتى اذا ما عادت الجموع تحوم حول الفرحة ... ضحك الاحق وزاد ضحكا ... وتعلمت الناس الضحك ، فضحكوا ... لم يأت الشرطي ... ضحكت الجموع الجافة ، ما طاب لمهجاتهم الجافة ان تضحك ... ورأوه يقرأ الجريدة حافي القدمين ، ورأوه يبتسم للاطفال الشرسين والسدم القاني ينزف من رأسه الاشعث ، ورأيناه لا يمارس الجنس .

واذ ذاك تيقنا ان المعتوه غير عادي ، ولا يعتمد عليه ، او يؤخذ بشهادته ، لا يرث ولا يصلح للزواج ... وان لم يضر فلا ينفع ... الا النساء المتورمات النظرات ، المتفتحات ، الضاحكات ، المستانسات كالزهور ، الملفوفات كالأكياس ، وحدهن النساء كنّ يحترمنه ، ويقدسن مخلفاته . يفهم الغازه ، ويحكين بأن شعر رأسه وبوله يصلحان لتزويج العوانس ، ولتطبيق العرائس ، وتخريب بيوتات الناس .

#### - ٤ -

والمجنون يفكر في مشاريع أخرى ، يفكر في سرقة أكبر صومعة في المدينة ، يفكر في ابتلاع ماء البحر وقيادة التاريخ الضريف الى الهاوية ، ويركب السحاب نهارا ، وتركبه الطرقات والشوارع ليلا ... لا يأكل ، لا يشرب ، ولا يذهب كالناس الى المراض . وحتى اذا ما نزل من السماء ذات مرة فهو يجلس على الطوار ، يدلي رجله . يقطع الطريق على المارة ، ويحلم ان يتدلى من حافة الارض ، وفجأة يقفز ، وفجأة يتدلى ، وفجأة يذهب الى البحر ، لا يبتلعه ، يلطم بمائه وجه الشمس ، فلا تنطفئ الشمس ، ولا تسرق الصومعة ، ولا يتدلى من حافة الارض ... ويدخل المعتوه الى عقله ، يبتلع نفسه ، ويفلق دونه العالم ، الابام والليالي ... وجسمه يظلّ ويبيت يصطدم بالاجسام الصلبة والجدران والارصفة ... يركض المدينة طولا وعرضا ... يلتقط قصاصات الجرائد وأعقاب السجائر ... تطارده النساء والرجال يحولقون ... والمجنون يدقّ ابواب العاقلين .

محمد الصباحي

المغرب

والفتيات الناضجات كالتفاح يتمنونه في الليالي الباردة . تتبرّك به النساء في سرية تامة ، ويستعملن مخلفاته قصد تطويع الأزواج ، او هدم البيوت ، اما الرجال فيذكرون الله وملائكته ورسله ، بمجرد ما يلمحونه ، خوفا من مصير يشبه مصيره ... والاحمق المعتوه لا يابه بأحد ، يقفز ويقفز ، يلعب القمر ... ويحتل حيزا مهما من عقلية المدينة ، هو وجه هؤلاء جميعا ، هو وجه كل من تعددت وجوهه . يحمل أسرار الناس ، يخاف عليها أن تذاع ، لكنه يذيعها صباح مساء ، يبوح بها للجميع ، ولا يبوح بها لاحد ... ولا احد يشق بالاحمق الا الاحمق ... بالفعل كان يشبهنا في كل شيء ، في رزانتنا ، في استقامة سلوكنا ، ويتفق معنا على كل الاشياء . وبغثة رفض كل شيء صائب وخاطيء ، رفض الذهاب الى عمله المعتاد . لم تعجبه رتابة الايام ولا قهوة الصباح . ومن ثمة نسي منزله ، أصدقائه ، والحقوق والواجبات ... وعندما تيقن انه في كامل صحته العقلية ... أدركه الوقت ، فجنّ ، وخرج يتفسح امام الملا ، لا يرتدي شيئا من ثيابه غير الحذاء .

وعمت الشارع فرحة عارمة . انسان عار ، كما ولدته أمه ، يتفسح على الانيقين المتعجرفين ، وعلى الطائعين الصابرين ، وعلى الواجبات ، يضحك على النهار وعلى الدكاكين المصطفة ... رجل عار تماما . وتوقفت الحياة لحظة ما . توقف الهواء ، تكسرت الحقيقة ، استمنت بعض العقول ، وغضت الطرف بعض العيون حياء مصطنعا . والباقي أخذ يحدّق في المجنون بجرأة ، وتلذذ فائق ... انسان خرج عن رشد الآخرين ، يطلب منهم ان ينزعوا ثيابهم ، لانها تنافقه ، تخيفهم وتخيفه ... ويسير في الازقة . لا شيء يهّم في هذا العالم ، كل الاشياء مضحكة ، والمدينة مستشفى بلا سياج ... كالذباب يتجمع الناس ، يحومون حول الفرحة العارمة .. والفرحة تمازج الشمس ... حتى الامس القريب كان هذا المجنون من خيرة المثقفين ، واليوم ها هو يقفز ، يتجرد من ثيابه ، ويلطم الشمس ، يبكي ، يقول لها كل ما يغنيها قليلا عن كثيره ... والفتيات الناضجات كالتفاح يسرقن النظر الى الرجولة ، الرجال يتقززون من الرجولة ، يخجلون ، ويرصدون شجاعة لا يملكها الا الحمقى في زمان جبان ... والفرحة قد بلغت أوجها ، وكادت أن تمعّ المدينة . واخيرا جاء شرطي رزين عاقل ، وألقى القبض على الفرحة العارمة ، فتفرقت الجموع مكرهة ، وراحت النفوس الامارة بالمجنون ، تبحث عن فرحة عارمة أخرى ...

- ٣ -

في عزّ الليل كان يمشي ، يحاذي جدار القبرة ، يخاطب أشجار الصفصاف الشامخة ، المنتصبه كالشهود